مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
المجلد 4العدد 1/ جوان 2018

Mila Univ center. Publish. Co..

حجاجية الخطاب عند البشير الإبراهيمي.

العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية عين.

The argumentation of Al-Bashir Ibrahimi's preaches. The Arabic: Its virtue over science and civism, and its impact on non-Arab nations as a model.

د عبد الحليم معزوز

abdelhalimmazouz@ymail.com

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف – ميلة -
الجزائر

تاريخ الاستلام: 2018/03/04 تاريخ التعديل:2018/06/29 تاريخ قبول النشر: 2018/06/30

الملخص :

عاش الشيخ البشير الإبراهيمي في مرحلة تميزت باحتدام الصراع بين الاستعمار الفرنسي والشعب الجزائري. فالطرف الأول حاول بكل جهده أن يطمس كل عناصر الهوية لدى هذه الأهالي التي استعمرها من أجل تسهيل السيطرة عليها، انطلاقا من إبعادهم عن كل ما يربطهم بهذه العناصر من دين ولغة.

وطرف ثان تمثّل أساسا في المثقفين من هذه الأهالي، ومنهم الشيخ الإبراهيمي، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الحفاظ على الهوية الجزائرية بكل ما يكوِّنها فحاولوا أن يؤطروا هذه الأهالي في مختلف المحافل وأماكن التجمع القليلة المتوفرة، خاصة المساجد منها، وقد تمثل أهم هذه المحافل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وقد حاولت في هذا المقال تناول إسهامات هذه الشخصية، التي كانت تشغل منصب نائب الرئيس في الجمعية المذكورة، من خلال دراسة تداولية لآثار العلامة، مركزا على نموذج واحد، هو أحد خطاباته في اجتماع في هذه الجمعية، ومحاولا استخراج عناصر الحجاج التي اتخذها الشيخ العلامة سبيلا لإقناع مستمعيه.

الكلمات المفتاحية: التداولية؛ أفعال الكلام؛ الحجاج؛ العربية؛ أسلوب الخطابة.

Abstract:

Sheikh Al-Bashir Ibrahimi lived at a stage marked by the intensification of the conflict between French colonialism and the Algerian people. The first party tried with all its efforts to erase all the elements of identity of these colonized people in order to facilitate their control, beginning by keeping them away from all that binds them to these elements of religion and language.

And the second party is mainly represented by the intellectuals of these people, including Sheikh Ibrahimi, who took upon themselves the mission of preserving the Algerian identity, with all its components, so they tried to supervise these people in various forums and places of assembly, which are available, especially mosques. And the most important of these was the association of Algerian Muslim Scholars.

In this article, I tried to present the contributions of this person, who served as the Vice-President of the previous association, through a pragmatic study of the achievement of named scholar, focusing on one model, which is one of his preaches in this association, and trying to extract the elements of argumentation which took the Sheikh as way of convincing his hearers.

Keywords: *Pragmatics, acts of speech, argumentation, Arabic, preaches style.*

مقدمة:

يعتمد تحليل أي خطاب أدبي على تبيان مدى التأثير الذي يتركه في نفوس متلقيه، كعلامة واضحة على نجاحه من عدمه، ويتوقف نجاح أي خطاب أدبي على الوسائل اللغوية وحتى غير اللغوية التي يستعملها منشئ هذا الخطاب. ويرتبط نوع النص والهدف من إنشائه على طبيعة هذه الوسائل اللغوية وغير اللغوية التي يستعين بها المبدع في إنتاجه الأدبي.

ولهذا فإنه لا يكفي تحليل الخطابات الأدبية بالاعتماد على ما تتيحه الدراسات التقليدية، والمتمثلة في لسانيات الجملة، كالبنوية "التي تعتمد في تحليلها للغة على الجملة باعتبارها المستوى الأعلى في التحليل"[1]،وإنما وُجب دراستها وفق النظريات الحديثة التي تهتم بمستويات الخطاب، ومنها الدراسات التداولية التي لا تتوقف على هذا المستوى وإنما تتجاوزه لتدرس ما يعرف بالقول؛ وهو مفهوم "يختلف تماما على مفهوم الجملة الذي يتأسس على عنصري الإسناد: المسند إليه، المسند. فالقول كما ذهب إلى ذلك بنفنيست هو نتيجة لفعل متحقق ضمن ظروف وأحوال سياقية. إن دلالة القول تتعدى دلالة الجملة. إن دراسته تعتمد على دراسة مختلف الأحوال التي تسببت في بنائه"[2].

ولكون ما قدمه الشيخ البشير الإبراهيمي من خطابات، من أجل المحافظة على مقومات الهوية الوطنية التي حاول الفرنسيون طمسها، تحمل في طياتها شحنة عاطفية دافعة ومحفزة لا تستطيع لسانيات الجملة وحدها الكشف عنها، حتمت الضرورة الاستعانة بما تتيحه المقاربة التداولية من إجراءات التناول والتحليل لتضاف إلى النظر في هذه الخطابات من حيث مستويات اللغة المختلفة من أصوات وصرف ونحو.

1المقاربة التداولية:

تستعمل المقاربة التداولية من أجل الكشف عن الوسائل اللغوية وغير اللغوية التي يستعين بها منشئ أي خطاب أدبي من أجل تمثيل الواقع والعالم، وكذا الإحاطة بجميع ظروف إنتاج ذلك الخطاب، والخطوات التي تتبع من أجل الوصول إلى هدف محدد يرمي إليه صاحبه، من أجل التأثير في المتلقي، فهي تتناول بالدراسة كلا من المرسل، والمرسل إليه، والرسالة في حد ذاتها، إضافة إلى ظروف إنتاج الرسالة. "ففي اللغة المتداولة –تحت تأثير أهداف تواصلية محددة– قد نستعمل جملة ما قاصدين معنى جملة أخرى. ومن ثمة يتم الانتقال من معنى مباشر صريح إلى معنى غير صريح"[3].

ويعود استعمال مصطلح التداولية بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles Morris في الثلاثينات من القرن الماضي للدلالة على فرع من فروع علم العلامات (علم التراكيب، وعلم الدلالة، والتداولية). غير أنها لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي الحديث إلا في السبعينات بعد أن طوّرها ثلاثة من فلاسفة اللغة وهم أوستينAustin وسيرل Searle وجرايس Grice ، وكانوا جميعا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من صميم التداولية أيضا، ولكن الغريب في الأمر أنه لم يستعمل أحد من الثلاثة مصطلح التداولية فيما كتب من أبحاث[4].

تتفق التداولية مع تحليل الخطاب في كثير من النقاط، فهما يشتركان في الأساس "بتحليل الحوار، ويقتسمان عددا من المفهومات الفلسفية واللغوية كالطريقة التي توزع بها المعلومات في جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية deictics والمبادئ الحوارية conversational maxims"[5] ، ومن هنا يصعب تحديد مفهوم دقيق للتداولية بحيث يكون محددا لميدان دراستها على وجه التخصيص. ومع هذا التداخل، فإن "أهم الأفكار

والملاحظات التي سعت إلى الإجابة على العديد من التساؤلات التي لم تتمكن المدارس اللسانية (ومنها البنوية) من الإجابة عليها، قد وجدت سبيلها في هذا الاتجاه ولعل هذا الغنى الذي تميزت به التداولية- وإن كان يشكل عائقا في ضبط المفاهيم- ساهم في حل إشكاليات كثيرة مطروحة"[6].

وبهذا، فإن الدراسة التداولية تنطلق من تحليل النصوص الأدبية بدءا بجانبها البنوي المتمثل في مستويات اللغة، ثم يتجاوز ذلك إلى الكشف عن الآليات الخارجة عما تتيحه العناصر اللغوية من أجل الوصول إلى المعنى الصريح وحتى الضمني لأي من هذه النصوص، فقد اتفق بعض الباحثين على أن "للمعنى مستويات ثلاثة: المعنى اللغوي وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات والضمائم والجمل، ومعنى الكلام وهو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن أو الموجود بالقوة force وهو معنى المتكلم"[7].

2الإجراءات التداولية:

ونعني بها الإجراءات التي تستغل في المقاربة التداولية من أجل الوصول إلى تحديد المعنى كما أراده المتكلم، أو تلك الإجراءات التي تنضوي تحت الدرس التداولي.

وخدمة للموضوع المتناول ولتجنب الإطالة التي قد تخل بالبحث، سأكتفي بعرض الإجراءات التي لها صلة مباشرة بعنوان البحث، وهي: أفعال الكلام، ثم التركيز على أسلوب الحجاج.

وفيما يلي عرض لهذه المفاهيم بالتعريف بها وكيفية الاستفادة منها في الدرس التداولي، ثم تطبيقها على المدونة المختارة من آثار الشيخ العلامة البشير الإبراهيمي، وهي الخطبة التي كان موضوعها ***العربية: فضلها على العلم والمدنية***، وأثرها في الأمم غير العربية. وذلك من أجل الكشف عن الأبعاد التداولية التي تضمنتها خطابات الإبراهيمي من أجل الولوج في عقول ونفوس مستمعيه من أبناء الجزائر، لأغراض الوعظ والإرشاد اللذين كانا الهدفين الرئيسيين لمناضلي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

2-1 أفعال الكلام:

اهتم باحثون من تخصصات عديدة ومختلفة بنظرية الأفعال الكلامية ، فاعتبرها علماء النفس أساسية لاكتساب اللغة كلها، فيما رأى نقاد الأدب أن فيها إضاءة

لما تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير في المتلقي، والأنثروبولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيرا للطقوس والرقى السحرية، كما أن الفلاسفة يعدونها مجالا خصبا لدراسة علاقة اللغة بالعالم، فيما يجد فيها اللغويون حلولا لكثير من مشكلات الدلالة والتركيب، أما في التداولية فإنها تظل واحدة من أهم المجالات فيها، بل إن التداولية في نشأتها كانت مرادفة للأفعال الكلامية[8].

ويرى أوستن –وهو صاحب هذه النظرية– أن " وظيفة اللغة الأساسية ليست إيصال المعلومات والتعبير عن الأفكار، إنما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية. حينما يقول القاضي (فتحت الجلسة) يكون قد أنجز فعلا اجتماعيا هو فتح الجلسة"[9].

ويميز أوستن بين نمطين من الأفعال:[10]

– **أفعال إخبارية أو تقريرية:** وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة، وهو ما يسميه العرب بالأساليب الخبرية.

– **أفعال أدائية أو إنشائية:** تنجز بها في ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى، ولا توصف بصدق ولا كذب، إنما ميزتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع. فالجمل هنا –من الوجهة النحوية– عبارات، ولكنها ليست توثيقية بل أدائية.

وفي فترة متقدمة لاحظ أوستن أن تمييزه بين الأفعال الإخبارية والإنشائية ليس حاسما، فرأى أن الفعل الكلامي في حقيقته مركب من ثلاثة أفعال، هي مرتبطة فيما بينها ولا يمكن الفصل بينها إلا لأغراض الدراسة، وتتمثل هذه الأنواع فيما يلي: [11]

– **الفعل اللفظي أو فعل الكلام:** وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدود وهو المعنى الأصلي، ويدل على إنتاج قوي ذي دلالة تخضع للتركيب.

– **الفعل الإنشائي أو الإنجازي:** وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي خلف المعنى الأصلي، أي العمل الذي ينم عن الحديث والذي يمارس قوة على المتخاطبين.

– **الفعل التأثيري:** ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع.

2-1-1 الأفعال الكلامية في خطاب البشير الإبراهيمي:

ارتأى البحث اختيار خطبة البشير الإبراهيمي التي موضوعها العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية، التي ألقاها سنة 1938م بمناسبة اجتماع لأعضاء جمعية العلماء، والتي نشرت في مجلة الشهاب، الجزء الأول، المجلد الخامس عشر، عدد فيفري 1939، ص 11[12]، كونها تناقش موضوعا مهما وذا صلة بالدرس اللساني الحديث، وهو البحث في اللغة وما تتيحه من إمكانات للبحث العلمي الذي يصنع المدنية، وكيف يمكن للغة أن تحمل على عاتقها مهمة الحفاظ على الهوية ومقوماتها الحضارية وإرثها التاريخي من جهة، ومن جهة أخرى دفع الأمة إلى الازدهار واللحاق بركب الدول المتقدمة علميا وثقافيا، فكانت الخطبة بحق جديرة بالاهتمام والتناول ضمن الدرس التداولي للكشف عن الآليات التي استعان بها الشيخ الإبراهيمي من أجل تذكير مستمعيه بماضيهم المزهر وما قدمته الحضارة العربية للحضارة الإنسانية ، وكذا ضرورة الاحتذاء بأسلافهم من أجل استرجاع المكانة التي تنبغي لهذه الأمة.

وتطبيقا لنظرية الأفعال الكلامية على هذه الخطبة، فالملاحظ فيها أنها تزخر بالنمط الأول من الأفعال الكلامية، ويتعلق الأمر بالأفعال الإخبارية أو التقريرية، ويمكن التمثيل لها بالعبارات التالية:

- انشقت اللغة العربية من أصلها السامي في عصور متوغلة في القدم، وجرت في ألسنة هذه الأمة التي اجتمعت في مناسب المجد وأرومات الفخر[13].

- وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات. وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات. والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها[14].

- إن كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم[15]....

فالنص في مجمله مبني على هذا النمط من الأفعال الكلامية، فمعظم جمله – إن لم نقل كلها– مبنية وفق هذا النمط، ولكنها مما يحكم السامع بصحتها، ولا يمكن إثباتها لأنها مبنية على حقائق تاريخية متعارف عليها وأثبتتها الدراسات التي أرّخت للحضارات الإنسانية، على الرغم من إقرار صاحب النص بأنه سلك "في الكتابة مسلكا

أدبيا يستمد من الخيال أكثر مما يستمد من الحقيقة ويعتمد على الخطابة أكثر مما يعتمد على البرهان"[16].

وإذا انتقلنا إلى دراسة الجمل التي كونت هذه الخطبة من خلال ما يتركب منه الفعل الكلامي من أفعال، فنجدها من حيث الفعل اللفظي كلها مبنية وفق تركيب نحوي صحيح، كما أن معناها قريب إلى أذهان المستمعين، وهي ضرورة تداولية من حيث إن المخاطب في حاجة إلى تبسيط الغاية من خطابه بغية الوصول بسهولة إلى مخاطبة عقول مستمعيه.

ولكن في المقابل، كان الغرض الذي من أجله جاءت هذه الخطبة يتعدى بالضرورة مجرد عرض وقائع تاريخية، وسرد معطيات حضارية، فهو يحمل في طياته معاني ضمنية يحاول المخاطب إيصالها إلى المتلقي قصد التأثير فيه ودفعه إلى النهوض من أجل تغيير أحواله بالاقتداء بأسلافه، فعبارات من مثل:

– والحقيقة التي يؤيدها الواقع ويشهد بها المنصفون منهم أن العرب حينما نقلوا علوم الأوائل كما كانوا يسمونها نقلوا بدافع وجداني إلى العلم ورغبة ملحة فيه، وأنهم نقلوا ليستقلوا وليستغلوا ولينتفعوا بثمرة ما نقلوا ولا يتم لهم هذا الاستقلال في العلم إلا بالتمحيص والتصحيح[17].

– إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة[18].

– الحق أن ما صنعناه نحن لهذه الأمة ضئيل، وأن ما أنفقناه في سبيلها قليل، ولكن النية في خدمتها صحيحة والرغبة في تعلمها ملحة[19].

وغيرها في الخطبة –وهي كثيرة مما لا يسمح المقام بحصرها كلها– تحمل في طياتها، بالإضافة إلى معناها الصريح، معاني أخرى ضمنية تتمثل في دعوة المتلقي إلى محاولة إحياء الجهد الذي بذله السلف من أجل قيادة الحضارة الإنسانية من جديد، حتى وإن كان ذلك باستغلال معطيات الحضارة الغربية، ولكن ليس من أجل الذوبان فيها وإنما للاستقلال عنها والانتفاع بها وتصحيح الأخطاء التي وقعت فيها من أجل تحقيق الريادة، ويكون ذلك بعد أن يقدم لهذه اللغة كل مقومات الرقي والازدهار لتكون بحق مما يستحق أن تحتوي كل معطيات التقدم والقيادة، ولا شك أن هذه العبارات بما تحمله من معانٍ

يستشعرها المتلقي الفطن تبعث في نفسه شحنة عاطفية تجعله يتأثر بهذا النوع من الرسالة، وتتيح لمنشئ هذا الخطاب أن يوصل مقصده بسهولة. يقول منقونو: " من جهتنا نعتبر أن الفعل الكلامي قد يتحقق حتى وإن لم تثبت نتيجته (في الواقع). فإن مجرد إصداره، يضفي عليه مشروعيته، بمعنى آخر، إن الذي يصدر منه الفعل الكلامي لا ينتظر حتى تتوفر جميع الشروط ليقوم بذلك، إن مجرد التلفظ به يعني أن تلك الشروط قد اجتمعت"[20].

وتجدر الإشارة إلى سلوك تكرر في النص في أكثر من موضع، يتمثل في إلغاء البشير الإبراهيمي للصيغ والأفعال التي قد تعطي لدى المتلقين انطباعا بأنه ينصب نفسه في مقام المعلم والعالم بأحوال الأمة، فيعمد إلى المساواة بينه وبينهم من خلال استعماله المتكرر لعبارة أيها الإخوان، وهو ما يعزز نجاح الخطاب وتحقيق الأهداف منه.

2-2 أسلوب الحجاج:

دارت معاني الحجاج حول المادة (ح ج ج) في المعاجم اللغوية، ومنها :
" الحجة البرهان وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، والحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة... التحاج التخاصم. الاحتجاج من احتج بالشيء أي اتخذه حجة... والحجة الدليل والبرهان. وأحج خصمي أي أغلبه بالحجة"[21].
"الحجة ما دل به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد"[22] .

فأساس الحجاج هو الارتكاز على دليل معين قصد إثبات قضية من القضايا، وبالتالي بناء موقف ما، ولجوء المخاطب للحجاج يدل على وجود اختلاف بينه وبين المستقبل، ولذلك فإنه يعمد إلى إقناعه لاستمالة عقله وبالتالي التأثير في سلوكه.

ويعتمد أسلوب الحجاج على كثير من الوسائل اللغوية وحتى غير اللغوية، من قبيل الشرح، والتمثيل، والمقابلات، وحتى حركات الجسم واليدين وإيماءات الوجه.

ولكون الشيخ البشير الإبراهيمي ممن يدافعون عن قضية جوهرية وهي المحافظة على القيم الأخلاقية والدينية ومكونات الهوية الجزائرية، ضمن واقع يشهد محاولات جادة لمحو هذه العناصر سواء من المستعمر لتثبيت نفسه في البلاد، أو حتى من بعض الجزائريين الذين يدعون إلى الاندماج والذوبان في هذه الثقافة الغربية الغريبة، فمن

البديهي أن يفترض أن من بين مستقبلي خطاباته من لا يقاسمونه آراءه، لذلك نجده يثري هذه الخطابات بألوان الحجاج المختلفة، ليصل إلى عقول وقلوب هؤلاء، سعيا منه إلى جمع آرائهم وتحقيق الأهداف التي يرمي إليها من خلال التوجه إليهم لتحفيزهم ووضعهم في الصورة الحقيقية التي يشهدها واقعهم.

2-2-1 أسلوب الحجاج في خطاب البشير الإبراهيمي

والنص الذي اتخذه البحث مدونة للدراسة لا يخرج عما تميزت به خطابات الإبراهيمي في عمومها، فجاء بدوره زاخرا بوسائل الإقناع المختلفة، فالدعوة إلى التمسك باللغة العربية في مجتمع يستعمل لغة أخرى في قضاء معظم حاجاته اليومية، حتى ضاق مجال استعمال اللغة العربية، وانحصر على أماكن محدودة كالمساجد، وكذا التذكير بما قدمته هذه اللغة إلى الحضارة الإنسانية والأمم غير العربية في وقت يشهد هيمنة القوى الغربية على كل الدول العربية، واتباع المغلوب لمنطق الغالب، كل تلك الأمور تستوجب أن يكون هذا الخطاب ذا قوة إقناعية تجعل صاحبه ثابتا ومتمسكا بما يدعو إليه، ليتحقق له النجاح الذي يصبو إليه.

أولا: الحجاج بالشرح:

يعد الشرح من أنماط الحجاج في الخطاب، والمقصود بالخطاب هنا الخطاب العادي، لأن "الشرح في ميادين أخرى من المعرفة لا يمكن تسميته كذلك، فهو يدخل ضمن مجالات ومستويات تخرج عن إطار الخطاب العادي، فالشرح في علم الكلام والنحو يعد تعليلا وفي تأويل معاني القرآن الكريم يعد تفسيرا، ولكلٍّ من هذين المصطلحين أسس نظرية خاصة به"[23].

ويتجلى الشرح في خطاب البشير الإبراهيمي من خلال ما جاء فيه من عرض للجوانب التاريخية والحضارية للغة العربية، وكذا في تبيانه لكيفية مساهمة اللغة العربية في إثراء الحضارة الإنسانية بمقومات اكتسبتها من الدين الإسلامي بعد نزول القرآن بها. وفيما يلي أمثلة عن ذلك، قال الإبراهيمي في نصه:

– وقد كانت هذه اللغة ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من

رونقها سمات. وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات. والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها[24].

فهذا الشرح جاء لتبيان مرونة اللغة العربية، ومدى قدرتها على استيعاب معطيات أية ثقافة، مع احتفاظها بخصائصها التي تجعلها متميزة عن غيرها من اللغات الأخرى.

– وخير المدنية وأوفاها للمدنية هي المدنية التي تقوي الجهات الصالحة في المدنية وتكمل النقائص الظاهرة فيها، وتسعى في نشرها ولإشراك الناس كلهم في خيراتها ومنافعها، وخير اللغات ما كانت لسانا مبينا للمدنية تسهل على الناس سبيلها وتمهد لهم مقيلها[25].

وبهذا الشرح يبيِّن الإبراهيمي ريادة المدنية العربية ولغتها لأنها تحقق خير البشرية ومنافعها.

– كانت هذه حال الحضارات إلى أن جاء الإسلام بالحضارة التي لا تبيد والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة، فكان التوحيد أساسها والفضائل أركانها والتشريع الإلهي العادل سياجها واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها. وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة على القواعد الثابتة[26].

وهنا يسعى البشير الإبراهيمي إلى تبيان أثر الإسلام في بلوغ العربية مكانة مرموقة لفترة من الزمن حيث هيمنت المدنية العربية على غيرها، وهي رسالة مشجعة لمن لا يزال مؤمنا بإمكانية استرجاع المكانة الطبيعية لهذه الحضارة.

ثانيا: الحجاج بالتمثيل:

من البيّن أن يكون التمثيل نمطا بارزا ومهما للحجاج، يستند إليه منشئ الخطاب من أجل تقوية حجته، وكذا جعل المعنى قريبا للمستقبل، متمثَّلا أمامه؛ وذلك باستخدام صور توضيحية تجعل من المعنى في صورة مادية يلمسها متلقي الخطاب ويستحضرها أمامه، ولنا في النمط التمثيلي الذي استعمله الله عزّ وجلّ حينما طلب منه خليله إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى بأن أحاله إلى استعمال الطير[27]، خير نموذج للحجاج باستخدام التمثيل.

وفيما يلي عرض لبعض النماذج الخاصة بهذا النمط من خطبة الإمام البشير الإبراهيمي:

– فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء، كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء[28].

وهنا إقامة علاقة مشابهة بين علاقة اللغة بالحضارة وعلاقة اللسان بالجسم بالنسبة لباقي الأعضاء، وهدفها التأكيد على مكانة وأهمية اللغة في تحديد مكان أي حضارة ضمن سلم الرقي.

– هذا كتاب الحيوان لأبي حنيفة شدّت في طلبه الرحال من عشرات السنين وأنفقت على تحصيله بدر المال، وتبارى هواة الكتب في طلبه في جميع أقطار الأرض، فلم يعثر له على أثر. وإن من يقرأ ما ينقله عنه ابن سيده في كتاب المخصص يسترخص في سبيله كل غال ويستسهل كل صعب[29].

ففي هذا المثال الذي يستشهد به الإمام الإبراهيمي تأكيد على قيمة ما أنتجته القريحة العربية عندما أولت اهتمامها بدينها وثقافتها من خلال الاعتناء بلسان هذه الثقافة وهي اللغة العربية.

– وإن لهذا الفريق في خدمة هذه اللغة أيادي بيضاء يستحقون عليها الشكر العظيم من أبناء هذه اللغة. فكم كتبوا عنها مؤلفات وكم عقدوا للبحث عن دقائقها مؤتمرات، وكم طبعوا من أسفارها القيمة في اللغة والأدب والتاريخ والعلوم، ولو لم يكن من فضلهم عليها إلا إحياء أمهات علمية عجزنا نحن عن إحيائها لكان ذلك موجبا لعرفان جميلهم، وإن كان فضل العربية عليهم في القديم عظيما، فقد قابلوا الفضل بفضل ولهم الشكر على كل حال[30].

يسرد الشيخ من خلال هذا المثال فضل بعض المستشرقين الذين يتسمون بالعدل –حسبه– على اللغة العربية، ليقوي من حجته بجعل اللغة العربية لا تحمل في طياتها مقومات المدنية العربية فقط، بل هي وعاء يحوي الحضارة العالمية قاطبة.

ولا تفوتني الإشارة إلى وسيلة حجاجية أخرى غير لغوية، يتمثلها القارئ لخطابات البشير الإبراهيمي كلها، وبالخصوص النص الذي تناولناه بالدراسة، ويتعلق الأمر بإشارات اليدين وتلميحات وإيماءات الوجه، وهي حركات مدروسة ومقصودة من أجل تقوية أي فعل كلامي لجعله يحمل صبغة حجاجية إقناعية فريدة، تساعد على بلوغ الهدف المرجو وتجعل المستمع يتقبل الخطاب قبولا حسنا ويتفاعل معه كما يتفاعل مع المخاطب، كما أنها تبعد المتلقي عن الشرود والالتفات عن الخطاب.

خاتمة:

كان هذا عرض موجز لبعض المفاهيم التداولية التي يمكن لأي خطاب أدبي أن يتوفر عليها حسب الهدف المرجو وطبيعة متلقيه، حيث يختار المؤلف هذه العناصر التداولية خدمة للموضوع وتحقيقا للمناسبة التي ألقى فيها خطابه، دون أن يغفل عن عنصر هام وهو تكييف خطابه مع مستوى المتلقين له وكذا موقفهم من القضية المعالجة، لتوزيع عناصر الخطاب لديه وفق تلك المعطيات، سعيا لتحقيق هدف خاص ومحدد.

ولا بد من الإشارة إلى أن طبيعة المقال والمساحة المحدودة له لم تسمح بعرض مستطرد لهذه العناصر، حيث اكتفى البحث بإيراد نماذج من النص المتخذ عينة للدراسة، مع محاولة التوفيق بين قلة النماذج وتطبيقها بطريقة توصل إلى الغرض المرجو بوضوح.

الهوامش:

(1) عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003م، ص 11.

(2) نفسه، ص ص 11- 12.

(3) العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011م، ص 15.

(4) ينظر : محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002م، ص ص 9- 10.

(5) نفسه، ص 11.

(6) عمر بلخير، المرجع السابق، ص 7.

(7) محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 13.

(8) نفسه، ص ص 40- 41.

(9) عمر بلخير، المرجع السابق، ص 155.

(10) ينظر: – بالمر، علم الدلالة إطار جديد، تر صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص ص 211–212.

– محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص ص 43– 44.

– عمر بلخير، المرجع السابق، ص 156.

(11) ينظر: – محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص ص 45– 46.

– عمر بلخير، المرجع السابق، ص158.

(12) أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ص 373.

(13) نفسه، ص 374.

(14) نفسه، ص 374.

(15) نفسه، ص377.

(16) نفسه، ص373.

(17) نفسه، ص377.

(18) نفسه، ص378.

(19) نفسه، ص380.

(20) D.MAINGUENEAU : Nouvelles tendances en analyse de discours, P19 نقلا عن عمر بلخير، المرجع السابق، ص 184.

(21) ابن منظور، لسان العرب، مجلد 2، دار صادر، بيروت، ط 3 ، 1994م، مادة (ح ج ج)، ص 228.

(22) الشريف الجرجاني، التعريفات، تح إبراهيم الأبياري، دار اللسان العربي، بيروت، 1992م،ص 482.

(23) عمر بلخير، المرجع السابق، ص ص 125– 126.

(24) أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 374.

(25) نفسه، ص 374.

(26) نفسه، ص375.

(27) ينظر : محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص38.

(28) أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 375.

(29) نفسه، ص 379.

(30) نفسه، ص 380.